التدوينات الشعبية مصدراً للثورة والاحتجاج في مصر المملوكية

د. سماح عبد المنعم السلاوى (*)

تعنى الثورة بمعناها العام بأنها العمل الذى يهدف إلى إحداث تغيير جذرى فى نظام الحكم والنظام الاجتماعى ، وهى رفض واضح للقهر والظلم الذى لا يمكن احتماله سواء كان سياسيا أم اجتماعياً ؛ ويتجسد هذا الرفض بالعمل الجماهيرى المباشر فى سبيل التخلص من القهر لبناء حياة أفضل ، والاحتجاج يعنى الاعتراض وإعلان العصيان على أوضاع فاسدة تسببت فى اضرار بالغة للناس ، وفى المصادر المملوكية المعاصرة كثيراً ما ذكر لفظ "ثارت العامة" ولكن فى ذلك العصر يختلف الأمر الى حد ما فليس المقصود بالثورة هنا ما تحمله الكلمة من معانى ومفاهيم معاصرة ، فقد كانت عبارة عن هبات عشوائية تحدث نتيجة موقف أو حادثة أثارت غضب العامة واعتراضها ، بالتالى كانت تعنى إثارة القلق والاضطرابات والتعبير عن الغضب والاعتراض حول وضع يخص الناس ويهدد مصالحهم ويتعارض مع أمانيهم وأحلامهم البسيطة.

ومن وظائف الأدب عامة أنه يعبر عن البيئة التى نشأ فيها ؛ فهو يقوم بأداء رسالة هامة وهى تسجيل الاحداث مع الايضاح والتفسير من خلال وجهات نظر مختلفة وخاصة الأدب الشعبى الذى يعتبر أكثر التصاقا بالمواطن ؛ لأنه ينبع من وجدان وانفعالات الشعب ذاته بشكل تلقائى عفوى ويحمل فى طياته مفاهيم وأفكار العامة البسطاء ، ويتميز فى نفس الوقت بالحيوية والرقة وبلغة متجانسة سهلة يفهمها الجميع ، وهو تجسيم الواقع والتعبير عما يجيش فى صدورهم وعقولهم من عواطف ومشاعر حالمة أو غاضبة ، والعلاقة بين التراث الثقافي والموروث الشعبي علاقة

(*) باحثة في التاريخ الوسيط .

انصهارية كونهما معا مرتبطان بذاكرة الأمة وهويتها ؛ فالموروث الشعبي جزءٌ مهمٌ من التراث الثقافي، فهذا الموروث يحتوى على مجالات عدّة من فنون الثقافة الشعبية لاسيّما فنون الأدب الشعبي من أشعار وحكايات وقصص شعبية وملاحم، وأمثال وألغاز وعادات وتقاليد، وعبارات وخطب وأغانى تعكس ضمير الشعب وقلبه وعقله ووجدانه انعكاساً طبيعياً تلقائياً بدون تصنع مما يجعله مجتمعاً متميزاً له ثقافته الخاصة به .

وقد ازدهر الأدب الشعبي قبل العصر المملوكّي، لكنه بلغ ذروّة عالية في ذلك العصر، حيث كان انعكاسًا للبُنى السياسّية ، والاجتماعية ، والفكرية، فقد بدا العصرُ المملوكّي مفعمًا بالتناقضات والمفارقات القاسية على الأصعدة كافة ، مما ساعد على بروز أدب شعبي متأثر بمعطيات العصر، وما أثارته من قضايا ومشكلات، وما استدعته من مواقف، فظهرت المعالم العامة في الشعر، والحكاية، والأدب العامي؛ الذي توّجه رّواده إلى عامة الشعب، وفي ذلك نقلّة هامة في أدبنا العربي، وإن شابه بعض اللحن، ومال إلى العامية، وإلى لغة التخاطب اليومي التي يفهمها عامّة الناس، وينفعلون بها[1] ، وليس الأدُب الشعبي قصدّة فحسب، بل هو السجُل الأدبُّي والفكرُّي للإنسان الشعبي في تناوله لقضايا المجتمع المختلفة ، وتبنّى أصحابُ هذا الاتجاه اللغَة العامية، فنشأ أدّب عامي بُعدَ عن قالب اللغة الفصيحة، والأساليب المولدة واللهجات، وإن كان قد أخذ من لغات أخرى دخيلة على اللغة العربية ، فتميز بلَحنه، وسهولة ألفاظه[2] .

وإذا كان التاريخ يسجل سير الحكام والقادة والنبلاء ، وشئون الحرب والسياسة ويسرد الأحداث ، وهو ما نسميه بالتسجيل التاريخى للتاريخ فالموروث الشعبى ؛ يجسد عاطفة العامة ورؤيتهم للأحداث والقيم والمثل والأمانى والتطلعات للمستقبل التى تتمناها الجماعة ، كما أنه يدور حول عادات وتقاليد المجتمع وأخلاقه ، ويعد نواة التاريخ ؛ إذ يحمل تفسيرات لأحداث تاريخية ويحكى عن أبطال تاريخيين بأسلوب متقل بالخيال والرموز الشعبية التى تخدم أغراض العامة ، وبذلك يمكن أن نصف الموروث الشعبى بأنه نوعٌ من القراءة الشعبية للتاريخ موازية للقراءة التاريخية ذاتها؛

بمعنى أنه يعكس رؤية الجماعة لتاريخها وهو ما نسميه أيضاً بالتسجيل الشعبى للتاريخ ؛ وفيه نجد الفنان الشعبى يعبر بقسوة شديدة عن الكراهية الشعبية لمن يقف ضد مصلحة الناس وأمانيهم وضد من يتسبب فى إيذائهم ويدين من يخون المثل العليا والقيم التى تمثل النظام الأخلاقى للمجتمع [٣] .

ومن الدراسات السابقة، عدة مؤلفات للدكتور محمد رجب النجار منها : الشعر الشعبى الساخر فى العصر المملوكى ، وسيرة على الزيبق ، والشطار والعيارين ، وكذلك محمود رزق سليم ، الادب العربى وتاريخه فى العصر المملوكي ، وياسين أيوب ، آفاق الشعر المملوكى ، وشوقى ضيف ، فن الشعر والفكاهة فى العصر المملوكى ، أحمد صادق الجمال ، الأب العامى فى مصر ، وهؤلاء تناولوا الادب الشعبى من الناحية الأدبية ومظاهر الجمال والبلاغة فى اللغة بالإضافة إلى بحث " الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى للدكتورة محاسن الوقاد ، ومن المصارد الهامة فى البحث ، كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس فهو احد المؤرخين القلائل الذى دون معظم الاشعار والعبارات الشعبية فى العصر المملوكى، وكتاب النجوم الزاهرة لأبن تغرى بردى .

ويعتنى البحث بتسجيل روح المقاومة الشعبية كما تجلت فى الأدب الشعبى فى العصر المملوكى ولاسيما فى فترة الانهيار السياسى والاقتصادى ، وبتوضيح دور الأدب فى تغيير الحياة الواقعية فى العصر المملوكى ، وهل كان للكلمة صدى معنوياً ومادياً سواء كان على المدى البعيد أو القريب ، بالإضافة إلى إظهار قدرة الشعب المصرى على تصوير معاناته واحتجاجه على الأوضاع القائمة وثورته ضد الطغاة والفاسدين الذين نهبوه واستغلوا خيرات البلاد أسوء استغلال لتحقيق مصالحهم الخاصة على حساب المصلحة العامة للناس ، ثم إبراز تأثير الكلمة على القادة ومجريات الأمور سواء كان تأثيراً سلبياً أم إيجابياً ، فالكلمة دائماً وأبداً لا تُنسى ولا تذبل بمرور الزمن فهى باقية ما بقى الزمن ولا تزال الكلمة تنير العقول وتلهب الحماسة وتثير المشاعر وتؤثر على سلوك الإنسان وأفكاره ومعتقداته ، فهى كالسحر يقلب الأشياء ويحولها إلى صور أخرى مختلفة .

وفى البداية أود ان اقدم نبذة مختصرة عن الدولة المملوكية وظروف نشأتها وتطورها ، حيث يبدأ التاريخ المملوكى باعتلاء الملكة شجر الدر عرش مصر بعد وفاة زوجها السلطان الصالح نجم الدين ايوب عام ٦٤٨هـ /١٢٥٠م أثناء حربه ضد الصليبيين فى الحملة الصليبية السابعة على دمياط وقد برزت قوة المماليك العسكرية فى ذلك الوقت[٤] ، كما استطاع المماليك حماية العالم الاسلامى من اخطار عديدة منها ؛ الخطر الصليبى حيث واجه المماليك الصليبيين وتوالت الجهود العسكرية لطردهم من بلاد الشام نهائياً وتم ذلك فعلياً عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، ثم توجهت بقايا الصليبين إلى جزيرتى قبرص ورودس فأصبحتا معقلاً وحصناً لشن الغارات على السواحل المصرية والسورية والذى أُطلق عليهم قراصنة الفرنجة فتصدت لهم القوات المملوكية فى البحر المتوسط ، وكذلك الخطر المغولى الذى كاد أن يدمر العالم الإسلامى لولا الاستعدادات المملوكية القوية[٥]، واستطاعوا بعد فترة وجيزة ان يستأثروا بالسلطة لأنفسهم وسرعان ما انشئوا دولة متسعة شملت مصر والشام والحجاز وامتدت حدودها حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا وحتى اليمن وحضرموت والنوبة جنوبا ومن بلاد برقة غربا وعلى امتداد شاطىء البحر المتوسط حتى الساحل الشامى وبذلك بلغت الدولة المملوكية أوج ازدهارها وقوتها السياسية والاقتصادية والعسكرية وأصبحت دولة مهابة ولها وزن فى عالم العصور الوسطى آنذاك .

أما النظام الذى ارتكزت عليه الدولة المملوكية كان النظام الاقطاعى العسكرى الذى قسم المجتمع المصرى إلى طبقتين منفصلتين تمام ومختلفتين ؛ احدهما الطبقة المملوكية الارستقراطية والتى تكونت من السلطان وأمراء الجند ونواب السلطنة والجنود السلطانية والتى احتفظت بالمناصب العسكرية والإدارية والحكومية ، تلك الطبقة التى كانت من العبيد المشتروات من جنسيات مختلفة وكونوا جيشاً قوياً وسُمح لهم بالترقى فى الوظائف سواء بالكفاءة أو بالحيلة والقتل والخديعة حتى يتولى منصب السلطان[٦]، وهنا لم يكون للشعب المصرى القدرة على اختيار حاكمه بل كان السيف والقتل هو الوسيلة للوصول إلى عرش البلاد ، والأخرى هى طبقة العوام أو العامة

بكل طوائفها من العلماء ورجال الدين والتجار والحرفيين والصناع والفقراء والحرافيش والشطار والعيارين ؛ تلك الطبقة عانت كثيراً من الفقر والعوز والحاجة نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة حتى فى فترات الازدهار الاقتصادى إلا أن الطبقة الحاكمة قد إستأثرت لنفسها بكل خيرات البلاد وكونت ثروات هائلة ويظهر ذلك من خلال المنشآت العديدة والمتنوعة ، وكذلك من خلال ما جاء فى المصادر التاريخية المعاصرة عن ثروات هؤلاء المماليك ، فقد كانوا من المعدمين بلا مأوى ينامون في الشوارع ويجلسون في الطرقات وعددهم كثير جداً وصل إلى مائة ألف شخص في حين يعيش المماليك والأعيان حياة مرفهة وغنية وهؤلاء البؤساء والمعدمين لا عمل لهم[٧] ، ولذلك يلجئون إلى مهنة التسول والغش والزيف للحصول على المال من عابري السبيل في الشوارع[٨]، أو يحصلون على الهبات والصدقات من المساجد والزوايا[٩]، وعندما يقيم السلطان أو أحد الأمراء وليمة في القلعة أو في أحد الميادين وبعد الانتهاء من الطعام يتركون الطعام للفقراء والمعدمين ومعهم الغرابيل ينخلون به الرمال للحصول على الفتات من الخبز والطعام [١٠]. ورغم محاولات السلاطين المماليك الاعتناء بالعامة إلا أن ذلك كان من باب التقوى وإظهار مدى تمسكهم بالدين والشريعة ، ولكن ذلك لم يغير من الوضع شيئا فسرعان ما كان الظلم والفساد واقعا على العامة لا محالة ، مما أدى إلى كثرة عدد الفقراء فى شوارع القاهرة وأصبح غالب الناس فى الديار المصرية فقراء وعظم إلحاحهم بحيث لا يكاد الشخص يمر به الطرقات إلا وهم بأثره ، أو بسبب الحرائق المتكررة فأشرفت القاهرة على الخراب وهجرها الكثير ووفد إليها أهل القرى والأعراب وكثرت الفقراء منهم حتى صاروا أفواجا فى الطرقات ومات منهم خلق كثير من شدة القحط [١١] ، وإذا حاول العلماء ورجال الدين فى بعض الأوقات حماية العامة والقيام بدور الوسيط بين العامة والسلطات الحاكمة إلا أن العلاقة بين رجال الدين والطبقة الحاكمة كانت تتأرجح بين التعاون والتضاد ، كما لم يسمح المماليك إلا لأفراد قلائل من العامة بالالتحاق بالجندية ، لذلك لم يستطع ذلك النظام أن يشبع حاجات عامة الشعب فأدى ذلك الى وقوع الشعب تحت ضغوط صارخة وخاصة فى

النصف الثانى من العصر المملوكى ؛ وفيه دخلت الدولة فى حالة احتضار وبدأ الحكم المملوكى يكشف عن وجهه الأخر ولم يقتنع العامة بأن يكونوا أداة فى يد الحكام وينتظرون منهم الفتات فكانت النتيجة المتوقعة فى ظل تلك الأوضاع السيئة أن احترفت العامة السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم فى أوقات الفتن والاضطرابات وفى أحيان أخرى يتحول الضعف وقلة الحيلة إلى الإحباط العام الذى يصبح عنف جماهيرى غاضب على تردى الأوضاع السائدة ليعبروا عن مطالبهم .

وقد اتخذت الاحتجاجات فى العصر المملوكى أشكالاً وطرقاً متعددة ، كما أختلف رد فعل السلطات الحاكمة ؛ فكان يحدث أن يقوم التجار بغلق الحوانيت والأسواق احتجاجا على فرض الضرائب والتلاعب بالعملة خاصة فى وقت الازمات الغذائية ، أو يقوم العامة فى كثير من الأحيان باللجوء إلى السلطان المملوكى حيث كانوا يحتشدون خارج أسوار قلعة الجبل مقر الحكم ويرفعون أصواتهم عالياً مطالبين إياه أن يرفع عنهم القمع والظلم والقهر الذى يمارسه الأمراء والموظفون عليهم ، أو يطالبوا السلطان بأن يسلم لهم والى القاهرة أو وشاد الديوان أو المحتسب ، أو تستخدم العنف وذلك بالاعتداء بالضرب على بعض الشخصيات الفاسدة فى الدولة ، أو الهجوم على منازلهم وتحطيمها وخاصة المحتسب والولاه والقضاة ، ولكن سرعان ما كان السلطان يرسل جنوده المماليك لضربهم وتفريقهم وقتلهم بدون شفقة أو رحمة ، أو يأمر بالقبض على البعض والزج بهم فى السجون وتسمير البعض فى الشوارع ليكونوا عبرة لمن يتجرأ ويحتج ، وفى أحيان أخرى قليلة يقوم السلطان بطرد الوالى أو المحتسب أو الموظف المتسبب فى حدوث الضرر الواقع على العامة ، وقد عانى الناس من ظلمه وفساده وبهذا يكون السلطان قد استجاب لمطالب الشعب واستخدم هؤلاء الموظفين كبش فداء لإرضاء الجماهير ولكنها كانت حالات نادرة فى التاريخ المملوكى .

ففى عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م احتج العامة على شاد الدواوين ووالى القاهرة علاء الدين بن كيك، ووقفوا تحت قلعة الجبل ومنعوا الأمراء من الدخول وكذلك الوالى

والحاجب ورجموهم بالحجارة حتى كاد أن يُهلك الوالى ولاذ بالفرار إلى الإسطبل وظل نهاره فيه ، كما أحدثت العامة بعض الشغب فأرسل إليهم السلطان بعض الأمراء المماليك ليفهم الأمر ، فطلبوا منه تسليم شاد الدواوين ووالى القاهرة ، وظلوا واقفين إلى ما بعد العصر دون استجابة لمطالبهم ، ثم قام المماليك برميهم بالنشاب فتشتتوا وهربوا إلى الرميلة وتم القبض على جماعة منهم وأُودعوا السجن وقُتل منهم آخرون وهرب باقى العامة ، وغُلقت أبواب المدينة ليلاً ، ولم يحقق لهم السلطان مطالبهم ، وبعد فترة أستنكر السلطان ما حدث وأفرج عن المسجونين ، وأمر بعزل الوالى وولى الأمير حسين بن الكورانى ، وفتح الأسواق ونودى بالأمان(١٢).

وعندما تسوء الأحوال الاقتصادية ولا يجد الناس ما يكفى قوت يومهم ولا يجدوا من يوفر لهم لقمة العيش بل يتركهم للفقر والجوع واليأس الذى يتحول إلى غضب صارخ وعنف جماهيرى ليس له حدود ؛ فقد حدث عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م أن ارتفعت أسعار الحبوب كلها وخاصة القمح وقل وجوده وكذلك الخبز ، وكثرت شكاوى الناس فاضطروا إلى الوقوف فى الشوارع واستغاثوا بالسلطان وطالبوا بعودة العجمى المحتسب فاستجاب لطلبهم (١٣) ، وعلى حد قول المقريزى حدثت حادثة شنيعة عام ٨٢٨هـ /١٤٢٤م عندما قل وجود الخبز فى أسواق القاهرة فتعرضت العامة للمحتسب بدر الدين محمد العينتابى فى طريقه إلى القلعة ولكنه لم يحاول تهدئتهم بل خاف من رجم العامة له فاستغاثوا بالأمراء وشكوا إليهم المحتسب الذى تسبب فى تلك الأزمة ونظراً لقربه من السلطان أوغر صدره على العامة فأرسل السلطان مماليكه فقبضوا على جماعة من العامة وأسلمهم للوالى فضربهم وقطع أنوفهم وآذنهم وسجنهم، وأمر بتوسيط آخرون ، ثم أُفرج عن اثنين وعشرين رجلاً ما بين " شريف وتاجر فتنكرت القلوب من أجل ذلك وانطلقت الألسنة بالدعاء " ، واستمر ارتفاع الأسعار وعدم وجود اللحم القمح مع كثرته بالشون والمخازن وثبات زيادة النيل .وبعد عدة أيام تولى العينتابى منصب قاضى قضاة الشافعية (١٤) ، و عندما عز وجود الخبز فى الأسواق رغم كثرة القمح فى القاهرة عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وقفت العامة للسلطان فى طريق ذهابه للرماية واستغاثوا به ولكنه لم يعبأ بهم ولم يلتفت إليهم (١٥) ، وفى

منتصف عام ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م توقف النيل عن الزيادة ونقص نقصاً شديداً واضطرب الناس لذلك مع غلو الأسعار ، وبعد عدة أيام وقفت العامة بشوارع القاهرة منذ طلوع الشمس من داخل باب زويلة إلى تحت القلعة وهم يصرخون بالسب واللعن ويهددون بالقتل ، حتى مر المحتسب على بن إسكندر ورجموه بالحجارة واعتدوا عليه حتى وصل للقلعة ، ثم تطاولوا بالسب على القاضى أبا الخير النحاس عندما جاء بعده وضربوه على رأسه فوقع عن فرسه وحاول الهرب فتبعوه ووضعوه على حمار عرياناً وأشهروه ، حتى استطاع الأمير يشبك تخليصه من أيديهم ، ولكن العامة سارت خلفه تلعنه وتقذفه بأقذر الألفاظ وتذكره بفقره وإفلاسه وما قاسه من ذلك فيما مضى [١٦] ويقال أن سبب اعتداء العامة على القاضى ابا الخير بن النحاس وكيل بيت المال ؛ أنه قد وصل إلى مسامعهم بأنه نصح السلطان بعدم الإحسان إلى الفقراء وزعم أنهم يشترون بالأموال حشيشاً وحلوى رغم أنهم وقت مجاعة وقلة المحاصيل وزيادة فى الأسعار بالإضافة إلى قيام الأمراء بخزن الغلال خوفا من العامة ، ويذكر ابن إياس بأنهم خطفوا عمامته واستولوا على خواتمه ثم رجموا والى القاهرة العلائى على بن القيسى بسبب زيادة سعر الخبز[١٧] عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م أمر السلطان بعد التعامل بالعملة الفضية العتيقة وسك عملة فضية جديدة أما الفضية العتق فكانت بالميزان فقام العامة برجم المنادى [١٨] .

وفى حالة انعدام الأمن والأمان كان الناس يتعرضون لضغوط جمة ولكنهم لم يستسلموا قط ؛ ففى عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م عندما حدثت فتنة قوية بين الأمير بركة والأمير برقوق ، استمرت ثلاثة أيام متواصلة ،وأُغلقت الأسواق ونُهبت البيوت وسمح الأمير برقوق للعامة بنهب منزل الأمير بركة ، وليستدر عطف العامة نادى فى القاهرة بعد انتهاء الفتنة " يا عوام أن كنتم رضيتم بمحتسبى القاهرة والوالى وإلا عزلناهما "فصاح بعض العامة : ما نرضى بهما " فأمر بعزلهما رضاء للعامة [١٩] ، وفى عام٧٩١هـ/ ١٣٨٨م زادت الفتن والصراعات بين الأمراء المماليك مما ساعد على انتشار الزعار واللصوص وخاصة بعد أن اعتمد عليهم الأمير منطاش فى صراعه وأنفق عليهم ٦٠ ألف درهم وأخرج بعضهم من السجون ، فاحتجت العامة

وثارت على ذلك الوضع الأمنى المتردى ووقفوا تحت قلعة الجبل وطلبوا من السلطان إعادة حسين بن الكورانى إلى ولاية القاهرة ليعيد الأمن والاستقرار ، فاستجاب لهم وتم القبض على عدد كبير من الزعر وسجنهم فى خزانة شمايل فسكن الحال[٢٠] .

ولم يسلم الفلاحون من بطش الولاة وجورهم مثلما كان عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م؛ حيث تقدموا بشكاوى للسلطان ضد الأمير ابن أقبغا آص لأنه كان يأخذ نسائهم وأولادهم وسرق أموالهم فأمر بالتحقيق معه واسترداد أموال الفلاحين [٢١] ومع حلول النصف الثانى من العصر المملوكى زادت مفاسد الولاة وموظفى الدولة الذين تولوا مناصبهم بالرشوة وصاروا يسرقون أموال الناس ظلماً وعدواناً بل ويأخذون الأموال من اللصوص ؛ ففى عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م ذكرت المصادر التاريخية أن الصيادين فى دمياط ثاروا على الوالى ناصر الدين محمد السلاخورى الذى تولى منصبه بالرشوة ، فقد كان من أسوء الولاة ؛ حيث ظلم الناس وسرق أموالهم وأخذ نسائهم وأولادهم بدون وجه حق فضاقوا به ذرعاً وتجمعت العامة وضربوا نائبه وأهانوه وحاول الدفاع عن نفسه فقتل احدهم وجرح ثلاثة منهم فاشتد غضبهم وتبعوه وقبضوا عليه وضربوه وأوثقوه من رجليه بالخشب وشهروا به على جمل والمغانى تزفه ثم قتلوه ، ثم جاءوا بالوالى " أمام القضاة ليثبتوا محضراً ضده وأوقفوه مكشوف الرأس عارى البدن وأهلكوه ضرباً حتى مات وسحبوه وأحرقوه بالنار ونهبوا داره وسلبوا حريمه وأولاده فكانت فتنة لم يدرك مثلها "[٢٢] ، كما وقفت العامة فى بلدة المحلة للسلطان وشكوا له ظلم بن رزيق الكاشف ولكنهم لم يستطيعوا تقديم دليلاً على ذلك فأمر بضربهم على أكتافهم ثم انصرفوا[٢٣]، كما ثار العامة فى عام٨٩٣هـ/١٤٨٧م على القاضى الشيخ شهاب الدين احمد الشيشى قاضى الجنابلة وكادوا يقتلونه لأنه قد افتى بجواز بدفع اجرة املاك شهرين فغضب الناس وهم فى ضيق العيش بسبب الضرائب الباهظة التى يجمعها السلطان من أجل اعداد الجيش [٢٤] .

وهكذا كانت حياة الحرمان المتواصلة التى ابتليت بها جموع الشعب المصرى فى ذلك العصر سبباً فى طول شكواهم واعتراضهم حتى صارت الشكوى والاعتراض سمة واضحة فى التاريخ والأدب فى العصر المملوكى ، وإذا كان المماليك قد

استطاعوا وأد المقاومة الشعبية المسلحة ومنعوا العامة من حمل السلاح وقاوموا ثوراتهم وهباتهم بالقبض عليهم والزج بهم فى السجون ، فإنهم قد فشلوا فى القضاء على روح الاعتراض والاحتجاج بالكلمة المكتوبة أو المنطوقة ولم يفلحوا فى كبح جماح اللسان الشعبى الغاضب هذا اللسان الذى سخر منهم وطالب بحقوقه وعبر عن آلامه وأحلامه فى الخلاص من بطش وقسوة وعنف حكام مستبدين ، وليس معنى أن الإنسان مقهور ومقيد بأنه ممنوع عليه التعبير عن شكواه واحتجاجه ، فكان لابد أن يجد سبيلا لينال حقه ، فكان الأدب الشعبى بكل فنونه نافذة للثورة والاعتراض ومعبراً عن وجدان الشعب ويتعاطف مع مطالبه والأهم من ذلك أنه سريع الانتشار والانتقال بين الناس لأنه فى الأساس أدباً شفوياً ولم يكن فى أغلب الاحوال مدوناً فى مؤلفات خاصة ولذلك انتجت لنا العامة أدباً شعبياً متنوعاً كوسيلة أدبية فنية رائعة الجمال والبساطة والعذوبة للتنفس والخروج من الأزمات والمصاعب التى كبلت الإنسان المصرى ، فكان الأدب الشعبى وسيلة البسطاء للتنفس والتعبير عما في صدورهم وملاذاً ومهرباً وعزاءاً واستنكاراً يواجهون به القوة المستبدة التى تحكمت في اقدراهم وأحلامهم .

وأهم ما يميز الشعب المصرى عن باقى الشعوب هو قدرته على انتاج أنواع مختلفة من الأدب الشعبى ؛ خاصة أدب المعارضة الساخرة ، وهو فن قديم فى التراث العربى وازدهر فى العصر المملوكى ازدهاراً واضحاً لأسباب سياسية واجتماعية وأدبية وتعتمد المعارضة الساخرة على العامية فتستخدم مفردات وتراكيب وعبارات دارجة وألفاظ شائعة فى لغة الحياة اليومية ، وقد ظل الشعر الشعبى بفنونه المختلفة صادقاً فى أمرين جوهريين هما : صدقه فى تجسيد المتناقضات السياسية والداخلية والخارجية وتردى الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية فى عصور المماليك تجسيداً فنياً وجمالياً ، كما أنه سعى فى غرس الوعى والصمود والتحدى عند جماهيره العريضة لمقاومة حكوماتها الجائرة ومجابهة أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية واحتمالها فى صبر وشموخ وثقة ولذلك فالشعر الشعبى كان بحق نبض

الأمة وصوت ضميرها الجمعى الصادق وأمل وجدانها القومى فله جمالياته الخاصة حيث يتوفر فيه قدر من الفنية الواقعية فتشبع حاجة الشعب الفكرية والروحية[٢٥] .

بالإضافة الى أن هذا الأدب زود العامة بجرعة من الحصانة النفسية وعمل على رفع الروح المعنوية لديهم وتزويدهم بقدر من الشجاعة والقدرة على المجابهة والصمود والتحدى وهذا يعنى تحقيق شيء من التحرر من مظاهر الكبت ، من ناحية أخرى عبر الأدب الشعبى عن روح الشماتة والتشفى فى حكامه كما حقق للعامة الشعور بالتفوق والاستعلاء والأصالة والانتصار وهنا تصبح السخرية ضربا من أناشيد الانتصار[٢٦] .

ولقد هيئت الظروف والبيئة فى المجتمع المصرى على ظهور أسلوب نقدى ساخر وابتكر المصريون أقوال وعبارات تهكمية وأحيانا فكاهية وفقاً للظروف المحيطة بهم وخاصة عندما لا يجد سوى الكلمات واللسان ليفرغ ما فى صدره من هموم وأحلام وأمانى ، فحياة الحرمان المتواصلة التى ابتلى بها الشعب المصرى خلال عصور متعاقبة كانت سبباً فى طول شكواه وانتقاده واعتراضه سواء كان الاحتجاج مؤثراً أم غير ذلك ، فكان عليه أن يكمل مشواره بالكلمة فربما تؤتى ثمارها فيما بعد، لقد كانت السخرية تعبيراً عما يجيش به الضمير الجماعى ، ويذكر ابن إياس أن " أهل مصر لا تطاق ألسنتهم إذا أطلقوها فى حق الناس"[٢٧] .

وقد عبر الأدب الشعبى عن روح المقاومة الشعبية من خلال بعض الألقاب والكنى[٢٨] التى أطلقتها العامة على بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء وكتاب الدواوين على سبيل التهكم والسخرية وأوردتها لنا المصادر المعاصرة ؛ منها على سبيل المثال : لقب المستعطى ؛ فقد لقب العامة الخليفة الواثق بالله إبراهيم بن الإمام الحاكم بأمر الله أخو المستكفى بالخليفة المستعطى[٢٩] لـ " قذارة فى نفسه وطمعه وكانت الخلافة عارية مستردة "[٣٠] .

أما لقب المجنون أطلق على الأمير يلبغا الأحمدى[٣١] ، وكذلك على الأمير سودون المحمدى الذى كان من أعيان خاصكية [٣٢] مماليك الظاهر برقوق وقد كان "

سودون المحمدى المجنون شاباً شجاعاً مفرطاً فى الجهل "[٣٣] ، وكذلك عُرف الأمير يلبغا المؤيدى شيخ – احد أمراء دمشق– بالمجنون لطيشه وحده مزاجه[٣٤] ومن الأمراء الملقبين بالمجنون أيضاً ؛ الأمير علاء الدين ألطبرس المنصورى والى باب القلعة فقد كانت له "أحكام قراقوش ؛ من حيث تسلطه على النساء ومنعهن من الخروج إلى الأسواق ، وكان يخرج فى أيام المواسم إلى القرافة وينكل بهن فامتنعن عن الخروج إلا للضرورة[٣٥]، كما أطلقه العامة على بعض سلاطين المماليك الضعاف الذين لم يعرفوا شيئا من أمور السلطنة ولم يحسنوا تدبير الأمور وتسببوا فى خسائر فادحة مثل السلطان يلباى المؤيدى المجنون الذى تولى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م فكان قليل المعرفة ووفقا لما ذكره ابن اياس " كان يقضى وقته فى غلاسة هو ومماليكه وكان ملبسه غلس وسماطه غلس وشكله سمج وتدبيره سيء فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسان وكان عنده شح زائد وبخل كثير وسيء التدبير فى سائر افعاله " ، وعلى الرغم من قصر مدة حكمة إلا أنها كانت من أشر الأيام وأنحسها[٣٦] ، كما كان منقاداً وراء الأمير خير بك الدوادار ولا يتصرف فى شيء من أمور المملكة إلا برأيه ؛فإذا سُئل عن شيء يقول :إيش كنت أنا ؟.... قل له " يعنى قل لخير بك حتى سمته العامة " قل له " ، وكان جاهلاً أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ولا الهجاء وقاسى الناس منه كثيراً وفى عهده قلت الأرزاق وكثر فساد المماليك الأجلاب وانعدام الأمن ، فتفاءل الناس بزوال ملكه[٣٧] .

وتتوالى على مصر النكبات فبعد التخلص من يلباى المجنون تولى السلطة فى نفس العام الظاهر تمربغا ولكنه لم يستطع إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خير بك ؛ فقام بعزله بعد شهرين وصعد إلى عرش السلطنة أثناء الليل ولقب نفسه بالظاهر، ولكن الأتابك قايتباى أقتحم القلعة وقبض عليه فأطلقت عليه العامة " سلطان الليلة " لأنه لم يمكث على كرسى الحكم سوى ليلة واحدة ، واستهزأ منه العامة بقولها " كلام الليل يمحوه النهار " وتولى بعده الأشرف قايتباى[٣٨] ، وفى عام٨٢١هـ/ ١٤١٨م ذكرت المصادر المعاصرة لقب الشيطان على الأمير علم الدين أقبغا بن عبد الله والذى جمع بين ولاية القاهرة وحسبتها وشاد الدواوين معا وقيل عنه " كان عنده

نباهه ومعرفة مع ظلم وعسف إلا أنه كان عفيفا عن المنكرات "[٣٩] ، كما أطلقت العامة لقب " الدم الأسود " على الأمير سيف الدين ملكتمر الجمالى الناصرى المتوفى عام ٧١٤هـ/١٣١٤م فكان ظالماً وأسرف فى ظلمه ؛ فقد كان يأخذ الخراج من إقطاعه بدمشق خمس مرات فى السنة مما جعل خلفاؤه يفعلون ذلك من بعده [٤٠] فتسبب فى ضرر بالغ للناس .

أما لقب فأر السقوف فقد أختص به المحتسب ناصر الدين متولى حسبة مصر أثناء سلطنة الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون [٤١] وجاء المصادر؛ أنه فى عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م وقفت العامة للسلطان الناصر محمد بسبب أن ناصر الدين فأر السقوف والذى كان وقتها ضامن المعاملات بمعنى أنه مسئول عن جمع الضرائب مقابل أن يدفع مبلغاً للحكومة ثم يجمع الضريبة من الناس وكثيراً ما كان يجمع لحسابه الخاص أكثر مما هو مقرر وبذلك كان الناس مجبرين على دفع ضعف الضريبة المقررة مما يعنى زيادة المأساة والظلم الواقع عليهم ، وأستغل منصبه فى التطاول على الرعية والاستيلاء على حقوقهم بالظلم والتعسف ، فاشتكى العامة للسلطان فسُجِن أول مرة ، وفى عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م عاد مرة أخرى واستعاد ٤٠ ألف درهم من بيت المال ، وتولى حسبة مصر ثم سُجِن ، ثم عاد عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م وأصبح ضامن جهات مصر والقاهرة وزاد من مبلغ الضمان ٣٠٠ درهم فى السنة و منع مقدمى الدولة من مشاركته فى أمور الجهات ، ومع حلول العام التالى صار الناس فى كرب وبلاء من فأر السقوف وما أرهق به كاهل الناس فى دار البطيخ ودار السمك وكثرت الشكوى منه وتقدمت العامة بشكاوى للسلطان ولكنه لم يصغ إليهم ، وبعد قليل حبسه وضربه وصادر بعض أمواله ثم أفرج عنه فى نفس العام [٤٢] وثمة نائب آخر يدعى على باى بن برقوق قد تولى نيابة الشام وأطلقت عليه العامة لقب زلابية تشبيها بشخص تركى مضحكاً وتعبث الناس معه ، وقد كان على باى به " طيش ونزق ويجرى وراء العوام "[٤٣].

وعندما أساء الأمير يلبغا الأتابكى إلى مماليكه وضرب بعضهم بالمقارع وقطع ألسنة البعض ، اتفقوا جميعهم مع السلطان شعبان بن الناصر حسن على قتله فحدثت

فتنة كبرى بينهما حتى فر يلبغا إلى الجزيرة وطلب من الخليفة أن يفوض السلطنة للأمير آنوك بن حسين بن قلاوون عوضاً عن السلطان الأشرف شعبان [٤٤]- الذى كان " مثل اللولب يديره كيف شاء " [٤٥]، ولكنه رفض ولم يمتثل يلبغا لأمر الخليفة فأمر " بإقامة شعار السلطنة وقال : أنا أعينه وأويده ، ومن الشوكة غيرى ؟ " فلم يجد الخليفة مفراً سوى قبول الوضع وتولى آنوك الحكم بعد إخراجه من دور الحريم بالقلعة بالقوة عام ٧٦٨هـ/١٣٦٦م وأجلسه على كرسى الحكم[٤٦] ، وجعل قصره ومقر حكمه فى الجزيرة الوسطى[٤٧] فصارت العامة يرقصون ولقبوه بـ" سلطان الجزيرة ، ما يساوى شعيرة "[٤٨] وذلك استهزاءا وسخرية من السلطان الضعيف الذى تحكم فيه غيره فأصبح لا يساوى شيئا ولا يقدر على فعل شيئا لنفسه وأرغمه يلبغا على تولى السلطة دون رغبة منه ودون رغبة من خليفة المسلمين أيضاً ، ولكن العامة لم تهدأ فعندما عاد يلبغا من الجزيرة سارت وراءه تهزأ به وتسبه وترجمه بالحجارة ، وساندت العامة السلطان آنوك حتى رجع إلى القلعة وتم قتل يلبغا . ولُقِبَ كذلك الأمير سيف الدين تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى الدودار الكبير بالأمير المؤذى وخاصة عندما تولى وظيفة رأس نوبة ثانية فصار ينهر ويضرب ويتعدى على الناس فاظهر بذلك ما كان مخفياً عن العامة[٤٩] وزاد الأمر سوءً حينما تولى منصب الدوادرية الكبرى فأصبح فظاً بذىء اللسان ، شرس الخلق ومتكبراً وعنده جبروت فاستحق بالفعل هذا اللقب[٥٠] بالإضافة الى القاب اخرى مثل الامير فرعون والأمير القرد والأمير خاين بك وسن إبرة والدباح والفاجر وغيرها .

كما سجلت كتب التاريخ نماذج من الأغانى الشعبية والشعارات والعبارات التى ألفها ولحنها وتغنى بها العامة فى مناسبات مختلفة فى المنتزهات والشوارع ، وهذا الفن من فنون الأدب الشعبى أكثر انتشارا وشيوعاً بين العامة لأنها أغانى جماعية ، وقد استطاعت هذه الأغانى فى بعض الأحيان التأثير فى مجريات الأمور السياسية ، أو التعبير عن سخط وغضب العامة ؛ فمنذ بداية الحكم المملوكى لم يرض المصريون بالظلم والقهر والذل ، فحاولوا الاعتراض ؛ فبعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وقعت معركة بين المعز أيبك والناصر يوسف بن الملك المسعود الذى انتصر

فى البداية ، ففرح أهل مصر وأقاموا له الخطبة فى المساجد ، ولكن سرعان ما انتصر أيبك و دخل القاهرة ومعه المماليك الصالحية وترك العنان لمماليكه ؛ فقتلوا ونهبوا أموال المصريين وسبوا حريمهم وفعلوا بهم ما لم يفعله الفرنج بالمسلمين ، وتسلطن أيبك على عرش الدولة ، ولكن العامة أظهروا علناً مقتهم وكراهيتهم لتولى سلطاناً مملوكاً عليهم وهم أحرار ، إذ لا يصح من كان رقيقا أن يحكم شعباً حراً ، وواجهوا السلطان أيبك وظلوا يسبونه فى مواكبه طوال فترة حكمه حتى مماته ؛ فكانوا يقولون له : " نحن لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد على فطرة الإسلام" ، ومن ناحيته كان يغدق على العوام العطايا الجزيلة حتى يسكتوا عنه(٥١)، وثمة حدث سياسيا آخر أبرز مدى قدرة العامة على الاعتراض والثورة على الحاكم ؛ ففى عام٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م اشتدت المنافسة بين المماليك البرجية والترك وتحكم الأميران بيبرس الجاشنكير وسلارفى أمور الدولة ومنعا الناصر محمد بن قلاوون فى التصرف فى شئون البلاد والعباد أو فى الخزانة فزاد حنقه عليهما ، فتأمرا عليه وحاصرا القلعة ثلاثة أيام ، ولكن العامة لم تعجبها ذلك فقد أحبت الناصر ودافعت عنه وتعصبت له وثارت ضد أعداءه وظلوا يهتفون رغم محاربة المماليك لهم ويصرخون بقولهم " يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون بن قلاوون " ، ولم يستطع الناصر مواجهة الأميرين لصغر سنه فرحل عن الديار المصرية(٥٢) ، ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ومع حلول عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م واستولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير على الحكم وقرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الرحيل إلى الكرك(٥٣)، وما كاد بيبرس يجلس على العرش حتى توقف النيل عن الزيادة وقلت الغلال وارتفعت الأسعار وضج العامة وتشاءمت منه وتعللت بعدم وفاء النيل ذريعة وألفوا أغنية شعبية قصيرة صاروا يرددوها فى الشوارع وأماكن المتنزهات أعلنوا فيها عن رفضهم للسلطان الجديد ورغبتهم فى عودة الناصر محمد وفي تلك الواقعة يقول العامة :

سلطاننا ركين ونائبه دقين يجينا الماء من وين

هاتوا لنا الاعـــرج يجى الماء يدحـــرج (٥٤)

وكلمة ركين هى تصغير للاسم ركن الدين تحقيراً له ، أما النائب سلار فكان به شعيرات فى ذقنه فسموه دقينا احتقاراً له ، أما الناصر محمد السلطان المنفى كان به عرج فسموه الأعرج ، وعندما سمع السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير تلك الأغنية أمر والى القاهرة بالقبض على العامة وبالفعل قبض على ٣٠٠ فرد وأمر بضرب بعضهم وأشهرهم على الجمال فى شوارع القاهرة وبقطع ألسنة الاخرين[٥٥] ، وزادت معارضة الأمراء والعامة لبيبرس حتى سارت جماعة من المماليك الذين خرجوا عن طاعة الجاشنكير إلى الكرك وأخبروا الناصر محمد بأن الناس فى مصر على طاعته ومحبته فعاد الناصر محمد للحكم وفر بيبرس من القلعة بعد أن كادت العامة تفتك به[٥٦].

ومن أشعار العامة اعتراضاً على النظام القائم ومن يتولى السلطة ويحكم البلاد؛ فطوال العصر المملوكى تولى الحكم حوالى سبعة عشر طفلاً لا يدركون شيئاً وليس لديهم وعى حقيقى ولم يكن بمقدورهم تولى زمام الأمور فكان لابد من وجود أمير مملوكى وصياً على السطان الطفل مثلما كان عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م حينما تولى سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون وله من العمر سبع سنوات فتولى نائب السلطنة إدارة شئون البلاد ، وبعد شهرين نُفى إلى قوص مع إخوته ثم قُتل ، فاضطربت أحوال مصر والشام ووقع خلاف وصراعات بين الولاه وحصل للناس غاية الضرر وفى ذلك قال احد شعراء العامية :

سلطاتنا اليوم طفل والأكابر فى خلف وبينهم الشيطـــان قد نــزغ

فكيف يطمع من مسته مظلمــه أن يبلغ السؤال والسلطان ما بلغا[٥٧]

وهنا صور الشاعر الوضع القائم الذى آلت إليه أمور الدولة ؛ فالسلطان طفل صغير وهناك من يتنافس على الحكم بدلاً منه وتلك سمة من سمات العصر المملوكى الذى استمر بسياسة الدم والحكم لمن غلب ، فكان من الطبيعى أن ينزغ الشيطان بين الأمراء فأدى ذلك إلى تدهور أحوال البلاد والعباد وضياع الشعب فكيف عندئذ من ظُلِمَ أن يشكو أمره وإلى من يشكو ؛ فهل يشكو إلى أمراء شرهون للسلطة أم إلى

سلطان لم يبلغ سن الرشد والعقل ؟ ، ثم يسخر ويحتج الوجدان الشعبى فى نفس العام على الأمير قوصون نائب السلطنة الوصى على السلطان الطفل علاء الدين كجك بن الناصرمحمد بن قلاوون فاستأثر لنفسه بالسلطة والحكم وصار صاحب الحل والعقد وعاث فى البلاد فسادا وطغيانا ، ولكن العامة مازالوا يحبون الناصر محمد وأبنائه فسعوا جاهدين على التخلص من قوصون ويثبتوا عدم شرعية حكمه وفى ذلك قال ابن تغرى بردى " ولبعض العوام قصيدة جاء فيها :

من الكرك جانا الناصر وجاب معه أسد الغابة

ودولتك يا قوصـــون ما كانت إلا كدابة (٥٨)

وتقوم العامة بمساعدة الأمراء أنصار أبناء الناصر محمد فى التخلص من قوصون المغتصب للسلطة وأتباعه حتى حاقت بهم الهزيمة ونهب العامة بيت قوصون طوال اليوم ولم يستريح العامة حتى تم القبض على قوصون واختاروا السلطان الناصر شهاب الدين أحمد سلطانا للبلاد ، فكانت تلك الأغنية سبباً فى هزيمة قوصون ولم يكتفوا بذلك بل عبروا عن فرحتهم العارمة بشنق قوصون بعمل تمثال من الحلوى على هيئته وهو مشنوقاً وعلقوه على باب زويلة وأقبل الناس على شراءها فقال الشاعر جمال الدين إبراهيم المعمار :

شخص قوصون رأيناه فى العلايق مسمر

فعجبنا منه لما جاء فى التسمير سكر(٥٩)

وفى ظل تلك الظروف البائسة حاول العامة البحث عن منقذ لهم من هذه الفوضى السياسية العارمة التى أرهقت الناس ؛ فوجدت فى الأمير سيف الدين طشتمر الساقى الناصرى ضلتها المنشودة والذى لقبته بحمص أخضر وقد عُرف عنه حبه للناس وكثرة صدقاته على الفقراء والحرافيش والأيتام(٦٠) ، ولكن خاب ظنها فعندما تقلد نيابة السلطنة فى مصر استغل صغر سن السلطان الناصر أحمد وتسلط وتجبر على الرعية واشتد بأسه وظلمه وزاد شره وضرره(٦١)، وقد أدرك الناس ذلك بوجدانهم فقال عنه شاعر شعبى مجهول عندما عاد من حل وتولى نيابة مصر فقال :

لما رجعـت إلينا من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا يا حمص أخضر بقلبين[٦٢]

وفى أوقات اخرى كانت العامة تؤلف أغانى قصيرة كلما ضاقت بهم السبل إعلاناً لرفضهم للواقع وتأكيداً على إدراكهم للخطر الكامن فى الداخل ؛ ففى عام ٧٧٨هـ/١٣٦٧م وقع خلاف بين الأمير بركة والأمير برقوق وبين سائر الأمراء فى الدولة وتصارع الجميع على السلطة حتى اتفقا معاً على تولى الحكم سوياً[٦٣]، حيث تولى برقوق أتابك العسكر أما بركة أصبح رأس نوبة كبير ومعهم الأمير أيتمش البجاسى أمير آخور فأصبح " الثلاثة هم نظام الملك وإليهم الحل والعقد وبرقوق كبيرهم " واستبدا بالأمر وأسرفا فى فرض الضرائب واستمرت الضغوط وزاد الخناق على الناس فعبر العامة عن تلك الحالة التى وصلت إليها البلاد بمقولة رائعة ولاذعة تغنوا بها " برقوق وبركة نصبا على الدنيا الشبكة "[٦٤] ، وذلك فى حد ذاته تعبيرا صريحاً على المؤمراة الدنيئة بين الأميرين على الشعب الضعيف ، وقد ظل العوام يرددون ذلك فى الشوارع والحارات كوسيلة للضغط على الأمراء المماليك الذين استسلموا لنفوذ بركة وبرقوق لتغيير ما حدث ؛ فثارت الضغينة والكراهية بينهم فحدثت فتنة كبرى والتى انتهت بفرار بركة وأنصاره وتولى برقوق السلطة وبعد عدة سنوات تمرد الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب على السلطان برقوق ووقعت فتنة بينهما مرة أخرى عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م انتهت بهروب واختفاء برقوق ثم القبض عليه ونفيه إلى الكرك وعودة الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان سلطاناً على البلاد وصار يلبغا الناصرى أتابكاً [٦٥]، وسعى الناصرى فساداً وترك العنان لجنوده فأخذوا النساء من الشوارع والحمامات ولم يتجرأ احد على منعهم وبعد أن أحست العامة بوطأة الناصرى ومماليكه ظلت تترحم على أيام برقوق الذى كان لا يزال مختفياً وكثر الدعاء له والأسف على فقده ، ولم يستسلم العامة لهذا القهر فعبروا عن غضبهم وعدم رضاهم عما حدث بصورة فكاهية ساخرة فرددوا فى الأحياء والشوارع " راح برقوق وغزلانه وجاء الناصرى وتيرانه "[٦٦] ، وما لبث أن حدثت فتنة أخرى بين الأمير منطاش الذى انضم إليه عدد كبير من الزعر والغلمان والعبيد والناصرى

واستمرت الحرب سائرة بينهما عدة أيام واستغل برقوق تلك الفتنة ليعود للسلطة وعندما علم العامة ذلك انضمت إليه وعبروا عن حبهم له واعتراضهم على منطاش فقال بعض الشعراء الزجالة :

من الكرك جانا الظاهر وجب معه أسد الغابة

ودولتـــك يا منطـــاش ما كانت إلا كدابة[٦٧]

إذا كان المماليك هم حماة العالم الاسلامى ؛ فحافظوا على حدوده وحققوا انتصارات ساحقة على المغول والصليبيين وغيرهم ونشروا الإسلام ؛ وانشئوا المساجد والزوايا والمدارس الدينية واهتموا بالتعليم الدينى وحافظوا على صورة الخلافة العباسية ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من ظلم الشعب وسرقتهم للمال العام والخاص فقاموا بمصادرة الأموال والعقارات وكونوا ثروات من المال الحرام الذى اخذوه من الناس بدون وجه حق ، وأحدثوا غشاً فى العملات فى الوزن والقيمة وترتب على ذلك خسارة فادحة للناس وتضرر الجميع مما أدى إلى تردى الأوضاع الاقتصادية ولم يقف العوام فى صمت واستسلام بل رفضوا واعترضوا على تلك الأوضاع ففى عام عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م سك الأمير جركس الخليلى أمير آخور فلوساً جديدة من الفلوس العتق ولكنها مختلفة الأوزان والقيمة مما يُعنى حدوث تغيير وتزييف فى العملة ، فأدى ذلك إلى وقف حال الناس وحصل الغلاء ، فرددت العامة مقولة ابدع ما يمكن تعبيراً عن سوء تدبيره وتحمل تورية لاذعة ساخرة من أفعاله ، فقالوا " الخليل من عكسو ...نقش اسمه على فلسو "[٦٨] ، وعندئذ قام الأمير برقوق بإبطال العملة كما أبطل ضرائب أخرى ليكسب ثقة العامة فيه وينال مودتهم وحبهم ومساندتهم له [٦٩]، وعندما كان السلطان برقوق عام ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م يستعد عسكرياً لمواجهة يلبغا الخاصكى ، لكنه هُزم لقلة جيشه ومع انتشار الطاعون عاد بمطالبة الناس بدفع المكوس ليستعد للحملة فكثر القيل والقال فى حق السلطان وعزمت الناس من الخاصة والعامة على الفتك بالوزير وأعيان الدولة وسَخِروا من قرارات السلطان الغير ثابتة ومعترضين على دفع الضرائب وصاروا يعلنون احتجاجهم وهتفوا قائلين " السلطان من عكسه عاد فى مكسه " [٧٠] .

وفى عهد السلطان إينال شاع تغيير العملة وغشها وترتب على ذلك غلاء الأسعار وتوقف حركة البيع والشراء وشكوى التجار والحرفيين والناس؛ ففى عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م أمر السلطان بأن يُصرف الدينار بثلاثمائة درهم بعد أن كان بثلاثمائة وسبعين درهماً وأُشيع بأن السلطان يفكر فى إلغاء العملة القديمة(عملة المؤيد شيخ والظاهر جقمق) وسك عملة جديدة ، فتوقفت الأحوال وزادت الأسعار وأغلقت الحوانيت وتعطلت المعايش وتزاحم الناس على شراء الطعام ، ووقفت العامة أمام القلعة فانطلقت الألسنة بالسب فى حق يوسف الجمالى ناظر الخاص السلطانى الذى كان سبباً فى تلك المشكلة .وأمر السلطان بسك عملة فضية باسم المؤيد شيخ وأخرى للأشرف برسباى وثالثة للظاهر جقمق ورابعة للأشرف إينال بالإضافة إلى الفضة الحلبية والشامية وكلهم ذات أوزان مختلفة[٧١]، ولهجت العامة فى حق السلطان بقولهم " السلطان من عكسه أبطل نصفه " ، " وإذا كان نصفك إينالى لا تقف على دكانى " وأشياء كثيرة من هذا من غير مراعاة للوزن والقافية وانطلقت الألسن بالوقيعة فى السلطان وأرباب الدولة[٧٢] ، وكان السلطان يريد سك فضة جديدة خالصة من الغش ولكنه علم بأن المماليك يريدون إثارة الفتنة فخشى من مساعدة العوام لهم فتراجع عن الأمر، وبعد عدة أيام أشتكى تجار الشام وغيرهم مما حل بهم من العملة الشامية التى نصفها نحاس والأخر فضة وطلبوا من السلطان حل المشكلة وعدم استخدام هذه العملة ولكنه نهرهم وأراد ضرب بعضهم ونزلوا من القلعة بدون طائل[٧٣] وهنا يتبين لنا أن الأشرف إينال كان ضعيفاً أمام مماليكه وخشى من انقلابهم عليه فترك لهم العنان فى البلاد يعيثون فساداً فى الأسواق والشوارع ، ويتعدون على الباعة والتجار وأخذهم أموال الناس بالظلم والجور، ويتدخلون فى شئون الدولة فكانوا السبب فى عدم سك العملة الجديدة النقية مما أفسد حال الناس قاطبة[٧٤].

وثمة أغنية شعبية أخرى ألفها العامة واعتبروها وسيلة لمواجهة سلطان فاسد وساعدتهم الأغنية فى التحريض الجنود على السلطان الأشرف برسباى عندما قام بحصار قلعة آمد عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م بسبب خلاف مع ملكها وطال الحصار دون جدوى ولم يتحقق النصر ، "وقد صار العسكر فى شدة طوال وقت الحصار بسبب

الحر الشديد والذباب ووخم الأرض ومن الجيف وعزة الأقوات فوضعوا أيدهم فى الزروع التى فى الضواحى فأفسدوها ونقلوا ما بها من الحبوب فتوسعوا به واتخذوا أرحية لتطحن لهم بها غلمانهم ليقتاتوا بذلك "[٧٥] ، كما ارتفعت الأسعار وضاق الجند ذرعا من حصار لا فائدة منه وليس له اسباب منطقية ، فشرعت العامة التى كانت فى الحملة العسكرية تغنى وتهزأ من السلطان المملوكى فقالت : "فى آمد رأينا العونة فى كل خيمة طاحونة والفلاح نهاره يطحن والجندى يجيب المؤنة" ،فلما سمع الجنود المماليك ذلك ثاروا على السلطان وفكروا فى الوثوب عليه والتخلص منه فخشى على نفسه وخاف أن تقع الفتنة فى صفوف الجيش فوافق إلى عقد الصلح [٧٦].

كما كان سلاطين المماليك يصدرون أحكاماً وقرارات تعسفية وصارمة وألزموا الشعب بتنفيذها خاصة فى النصف الثانى من العصر المملوكى ؛ ففى عهد السلطان قايتباى عام ٨٩٦هـ /١٤٩٠م اجتمع مع القضاة الأربعة فأصدر قرار برفع قيمة الضريبة على العقارات والدكاكين والحمامات والأراضى الزراعية والطواحين والأفران والأوقاف وجمعها سنة مقدماً بحجة اعداد الجيش للخروج فى حملة عسكرية ، فاقترح القضاة تقسيط الضريبة على خمسة اقساط وقبل ذلك فرض عليهم أجرة شهرين فأصبحوا سبعة أشهر " وما يطيق الناس أكثر من ذلك " ومع زيادة الضغوط والظلم والقهر لم تجد العامة سوى الشعر تنفسياً عما فى صدورهم من اعتراض واحتجاج على تلك الأحكام الظالمة وخاصة فى حالة وجود جباة غلاظ ، وقد قال بعض الشعراء موالاً :

غرمت شهرين عن أجرة مكانى

وأصبحت مغموس فى بحر المغارم غمس

أقسم برب الخلايق والقمر والشمس

ما طقت شهرين فكيف أطيق خمس[٧٧]

ثم ألغى السلطان التجريدة العسكرية وأنفق الأموال على الأمراء وليس فى منفعة الناس .

وفى عهد السلطان الغورى عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م ثار الجند وطالبوه بالنفقة ولكنه عجز عن ذلك واضطر إلى اصدار قرار بأن " تبقى الأوقاف على حالها ويؤخذ من ريعها سنة كاملة ، ومن أجرة أملاك القاهرة من بيوت وربوع وحوانيت وحمامات وغيطان ومراكب وغير ذلك يؤخذ منهم أجرة عشرة أشهر كاملة حتى من وقف البيمارستان المنصورى وسائر الأوقاف " ووزعت المراسيم،ولكنه أبطأ فى النفقة، فوثبوا عليه فطمأنهم بالدفع بعد مجىء الحج، واستمرت المصادرات وجمع الأموال وضيق أصحاب الأملاك على السكان وألزموهم بتعجيل الأجرة عشرة أشهر معجلاً لأجل دفع تلك الغرامة فحصل للناس الضرر الشامل وتعطلت الأسواق فى البيع والشراء ووقع الاضطراب للفقير والغنى وفى ذلك قال ابن إياس:

لما جبوا أملاك مصر والقرى ... فى عام سبع مضنى الإهلاك

الله أكبر يا له من حادث ... قد ضج الناس من الأرض والأملاك

وفى يوم الجمعة وقف الناس للمحتسب للشكوى ولكنه لم يلتفت إليهم فرجموه، فقام المماليك بقتل بعض من العوام ، ثم نهب الزعر والعبيد الدكاكين واستمر ذلك حتى المغرب ، فلما تزايد الأمر قبض والى القاهرة على عدداً منهم ووسط منهم نحو أربعة عشرة إنساناً ،وكادت القاهرة أن تخرب عن آخرها وفى صباح السبت أمر السلطان بجمع الضرائب لسبعة شهور فقط بدلا من عشرة فهدأت الأحوال قليلاً (٧٨) ، ثم يأمر السلطان الغورى مراراً أصحاب الدكاكين فى القاهرة أن يقطعوا الطرق ويمهدوا الشوارع لأن الأتربة قد ارتفعت وتكلف الناس أموالاً كثيرة دفعوها للعمال مقابل حمل التراب فى حين كان ذلك العمل من اختصاصات الحكومة، بالإضافة إلى عدم الأمن والأمان فى عهده ،وكثرة فساد المماليك الجلبان الذين نهبوا الأسواق والمنازل واستولوا على ما يجدوه ، ولم يتجرأ احد من الناس أن يقاومهم حتى كبار الأمراء والأعيان ،وفى أوقات كثيرة لم يستطع السلطان نفسه كبح جماحهم، فتتحمل العامة بطشهم وفى تلك الواقعة أنشد ابن إياس كلمات فى ق السلطان الغورى ودولته فقال :

من دولة الغورى ومن جوره لقـد حملنا فوق مالا نطيـق

وقد كفى من فعله من جـرى من قلة الأمن وقطع الطريق[٧٩]

بالإضافة إلى المصادرات وسرقة المال العام واستنفاذ أقوات الشعب ؛ فقد حدث أن السلطان الغورى بنى مدرسة عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م وأخذ سوق الجملون وما حوله من الأسواق وتناهى فى زخرفتها فجاءت فى غاية الحسن والجمال ولكن شنع عليه الناس " لأن مصروف عمارة المدرسة كان من وجوه المظالم والمصادرات وأخذ رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان " ولذا سمى بعض العامة هذه المدرسة " المسجد الحرام "[٨٠] ونجد هنا سخرية ونقد واضح لسيرة المماليك واعتراض من العامة على سرقتهم للمال العام والخاص . وزاد المماليك فى سطوتهم فسخروا العامة لخدمتهم ففى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م كثر الحريق بالقاهرة بسبب الدريس فى بيوت المماليك فقد كانوا أكثر من خزن الدريس فى تلك السنة ، وصاروا يمسكون الناس من الشوارع والحارات غصباً وإجباراً من أجل نقل الدريس إلى أماكن أخرى فتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

" اهرب يا تعيس .....وإلا حملوك الدريس" [٨١]

ومن محاسن شعراء العصر المملوكى أنهم كانوا يشعرون بما يحيق بالشعب من مظالم وآلام وكانوا أكثر قوة على التعبير عن هؤلاء العامة فلديهم سعة أفق وإدراك ، كما كانت وجهتهم النقدية الثائرة للمصلحة العامة ولم يخشوا فى سبيل ذلك حاكماً او عالماً أو قاضياً فى الوقت الذى لم تقدر العامة على تصوير واقعهم المرير ، وهم قد مزجوا نقدهم واعتراضهم بشيئين هما : تسجيل الواقع والهجاء اللاذع والنكتة المستترة ورائها تورية لا يفهما إلا العوام أصحاب الشأن فكان ذلك من دعائم الأسلوب الشعبى فى الثورة والاحتجاج[٨٢]، والأهم من هذا هو أن شعراء العصر وعوا مسئوليتهم الأدبية فأشاروا إلى مواضع الفساد والتزييف والرشوة والجهل وغير ذلك بهدف إصلاح المجتمع والقضاء على مظاهر الظلم فى ظل مجتمع ساده الجشع والطمع وسلطات حاكمة تجاهلت حقوق العامة ، وعبروا عن ذلك بصورة هجائية

ساخرة مع روح مرحة ضاحكة كوسيلة للاحتجاج وأصبحت تلك الطريقة سلاح كثير من الشعراء والعامة[٨٣]، وهو يعد نوعاً إيجابياً من الهجاء تجاوز حدود الفردية الضيقة بل تناول المثالب ذات الآثار السلبية فى المجتمع المملوكى [٨٤] .

كما يمكن اعتباره مظهر من مظاهر المقاومة الشعبية والتمرد على الجور والفساد فى الدولة خاصة فى حالة وجود موظفين ومسئولين ذوى سمعة سيئة أساءوا للناس وتحكموا فى أقدارهم ؛ ففى وفى عام ٨٣٥ هـ / ١٤٣١م تولى الأمير دولات خُجا ولاية القاهرة وقد عُرف عنه ظلمه للعباد وابتكار الطرق لإيذاء الناس وتعذيبهم عندما كان كاشف الوجة القبلى ثم الوجه البحرى ، كما كان السلطان برسباى يخشاه ويقى شره أيام جنديته وعندما اصبح والياً على القاهرة أفرج عن كل المساجين ووعده بالتوسيط إذا قُبض عليهم وأمر الناس بتنظيف الشوارع ومنع النساء من الخروج للمقابر وفرض عليهم أموراً أخرى مما ضاق الناس به كما كان الحال فى زمن ولاية التاج الشوبكى وأخيه عمر اللذان تولا قبله مباشرة[٨٥] ، فصار الناس فى حالة غضب وعبروا عن ذلك بقولهم " راحت دولة عمر وجت دولة خُجا "[٨٦] وفى عام ٨٤٢هـ /١٤٣٨م تم القبض على الأمير قرقماس الشعبانى الناصرى ، وعندما رآه الناس فى الشوارع " وقد زالت عنه تلك الأبهة والحشمة من عظم ما داخله من الخوف والذل ، اسمعته العامة كثيراً مما يكره ولهجت تقول في الطرقات: " الفقر والإفلاس ولا ذلتك يا قرقماس "، وذلك لأنه عندما ولي الحجوبية بالديار المصرية شدد على الناس وعاقب على المسكرات العقوبات الخارجة عن الحد ، وكان في ظلم وجبروت ، فلما أن وقع له ما وقع ، فرح الناس فيه[٨٧]، ثم فى عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م خلع السلطان خشقدم على البباوى وعينه وزيراً ، فكان ذلك من مساوىء خشقدم وقالت عنه الناس " الزفر تولى الوزارة " لأن البباوى لم يكن أهلاً لذلك المنصب فقد كان طباخاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب فقلت هيبة المنصب و قيل عنه :

قالوا البباوى قد زور　　فقلـــت كلا لا وزر

الدهـــر كالـــدولاب لا　　يدور إلا بالبق[٨٨]

ويرجع ابن تغرى بردى سبب توليه الوزارة هو طمع السلطان خشقدم فى أمواله وثروته حيث أمتلك أموالاً هائلة من مهنته التى مهر فيها فأحتال السلطان علي أخذ ماله بأن ولاه نظر الدولة عام ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م . فتعجب الناس من ذلك ثم ولاه وزارة الديار المصرية فى العام التالى ولم يحدث مثل تلك الحادثة من قبل " لأنه كان احد العوام الأوباش الأطراف السوقة ووثب على هذه الوظيفة العظيمة وهى من أجل وظائف الدنيا بعد الخلافة شرقاً وغرباً."(٨٩) .

وُضِعَ القضاء لحماية الناس من البطش والجور والظلم ، فيساعدهم على استرداد حقوقهم ، ولكن عندما يصبح تولى القضاء بالمال ،ويتحكم الحاكم فى القاضى ؛ فيصدر القاضى أحكاماً ويجيز أموراً تخالف الشرعية والحق والعقل فتضيع حقوق الرعية ، فى حين كان الناس يتوقعون أن القضاء هو الملجأ والملاذ وهو السبيل الوحيد لتحقيق العدل ، فيضطر الناس إلى الثورة على القضاة الفاسدين وأحكامهم الجائرة وهم بذلك يسعون إلى تحقيق شىء من العدالة وتنقية القضاء لأن حياتهم ترتبط به ، وإذا كان الناس لا يقدرون فى ذلك العصر على تغيير نظام الحكم ، فإنهم فى تلك الحالة سلطوا ألسنتهم الحادة اللاذعة على السلاطين والقضاة ؛ فصور الشاعر الشعبى الظلم الذى لحق بالناس بسبب فساد القضاة وتكالبهم على تولى المنصب بالرشوة مع عدم كفاءتهم لتولى هذا المنصب الشريف . فقد اعترض العامة على القضاة المرتشون منهم القاضى جمال الدين القلقشندى الذى تولى القضاء بعد دفع ٣ آلاف دينار واستمر فيها ستة أشهر فقط ، فقال احد الشعراء فيه :

يا أيها الناس قفوا واسمعوا صفات قاضينا التى تطرب

يلوط .يزنى .ينتشى .يرتشى ينم. يقضى بالهوى. يكذب (٩٠)

حدث عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م أن قام الشاعر الشعبى جمال الدين السلمونى بهجاء قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بقصيدة – كان مقرباً إلى السلطان الغورى وساعده فى كثير من مظالمه باستخدام الغش والتدليس والحيلة للاستيلاء على أموال اليتامى

والأوقاف – لاذعة وصف فيها حال القضاء فى عهده وتماشى ذلك مع وجدان الشعب المصرى الذى تضرر كثيراً من أحكام ابن الشحنة ، جاء فى مطلعها :

فشا الـزور فى مصر وجنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

أينكر فى الأحكـام زور وباطـل وأحكامـه فيهـا بمختلفاتهـا

إذا جاءه الدينار من وجه الرشوة يـرى أنه حل علـى شبهاتها

فصارت العامة تردد القصيدة فى الشوارع والأسواق والمجالس معبرين عن سخطهم وغضبهم على القاضى بن الشحنة واعتراضهم على الحكم الصادر ضد الشاعر بالضرب والتشهير فى الشوارع ، فغضب القاضى ابن عبد البر وشكاه للسلطان الذى أمر بعقد مجلس القضاء بالمدرسة الصالحية وتعصب القضاة أيضاً قاطبة وأرادوا ضربه بالسياط وإشهاره فى القاهرة ولكن العامة تعصبوا للشاعر ورجموا القضاة بالحجارة وكادوا يقتلون ابن عبد البر فاضطر إلى إلغاء عقوبة التشهير والضرب وأمر بسجنه[٩١] .

اختتم البحث بفن آخر من الأدب الشعبى ؛السيرة الشعبية فهى تكاد تكون رؤية وجدانية للتاريخ وأحداثه وأبطاله ولا تنتمى لعصر بعينه أنما هو نتاج مستمر فى إطار فنى تلقائى ، ولذا فالسيرة مجهولة المصدر دائماً وتتناقل على ألسن الرواة الذين يضيفون إليها ويعدلون فى أحداثها وفى بناء شخصيتها ، ولأن الحكاية الشعبية إبداع فنى يشكله وجدان الجماعة فنجد أن السيرة الشعبية تختار شخصاً تاريخياً وتعيد صياغته فى إطار شعبى يلبى حاجات الجماعة ويفسر التاريخ لصالح الناس ، ولذلك فإن الراوى يصور بطلاً من أبناء الشعب يحمل الصفات والقيم والأخلاقيات التى يفضلها العامة فى زعمائهم ، كما يحور الشخصيات التاريخية الواقعية بشكل يوافق الرؤى الشعبية فلا يلبث الحدث التاريخى أن يتوارى خلف تراكمات الخيال التى تصنع متنفساً حقيقياً للمشاعر الشعبية من ناحية وتبرر الإحباط واليأس فى وقت الأزمات[٩٢] ، وبالتالى فالسيرة الشعبية لم تقصد التحقيق والتدقيق فى الحدث التاريخى بل اهتمت بالمغزى فهى تشمل على حقائق وكذلك على خرافات أو خيال محض فيقوم

الراوى بتنظيم الأشخاص فى سلك واحد رغم تباعد السنوات بينهم فهو لا ينظر إلى فوارق الزمان والمكان ، كما نجد فى السيرة الاعتماد على الأولياء الصالحين والجن والخرافات المنسوجة حول الكائنات ذات القوة الخارقة (٩٣) .

والسيرة المصرية التى اتناولها فى هذا البحث وتعبر عن روح المقاومة والاحتجاج المصرى هى سيرة على الزيبق(٩٤) ؛ وهذه السيرة تروى بطولة فردية لشخص واحد فقط وليست جماعية ، تلك الشخصية تحمل بداخلها الأخلاق الحميدة والصفات الطيبة التى يتمناها العامة ، بالإضافة إلى أنه مصرى شعر وجسد أحلام وأمانى البسطاء،حقق لهم العدالة الاجتماعية فى زمن الظلم والفساد واغتصاب حقوق العامة الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً فقام الزيبق البطل باستخدام الحيل والألاعيب كوسيلة للمقاومة الشعبية ضد السلطة الطاغية ، واسترد حقوق العامة الضعفاء .

على ايه حال فإن سيرة على الزيبق تتناول فترة أواخر العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى وذلك من خلال بعض الالفاظ والعبارات الواردة بها وأسماء بعض الشخصيات(٩٥)، فقد تعرضت مصر لهجمات العثمانيين واستطاع السلطان سليم الاول الاستيلاء عليها وتحولت مصر الى ولاية عثمانية يحكمها الوالى ، والعثمانيين لا يتميزون على المماليك فى شىء فكلاهما محتل استولا على البلاد وسيطرا على مقدرات الحكم و استغلا ثرواتها وخيراتها وعين العثمانيون ولاة اذاقوا الشعب المصرى الويلات والمصاعب ، والسيرة تتخذ من على الزيبق بطلا شعبيا ثائرا ضد السلطة القائمة ومعبراً عما يتمنوه .

وتبدأ السيرة بذكر الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى حكم بغداد من عام ١٧٠-١٩٣هـ وأحمد بن طولون فى مصر الذى تولى من عام ٢٥٤-٢٧٠م إلا أن الراوى قصد من ذكرهما أنه يحلم بحاكم مثالى مثلهما يحقق للشعب الأمن والعدل ويرد الحق لأصحابه وهو بذلك يعترض على الوالى القائم فى الدولة ورغب فى تغييره بشخص آخر مثل هارون الرشيد أو مثل أحمد بن طولون فى عصر يسوده الفساد والظلم والرشوة وتولى السلطة عن طريق الحيلة والمكر والتسلط واستغلال النفوذ للإيقاع بالآخرين ، ونلاحظ فى السيرة رغبة على الزيبق فى الوصول الى منصب مقدم

الدرك وهو رئيس الشرطة لأنه يعكس سيادة القانون أو غيابه لأن صاحبه مسئولاً عن حفظ الأمن والأمان والاستقرار فى الدولة وحماية الناس من الغش فى الأسواق والسرقات وظلم التجار ، ولكن السيرة تصور هذا الشخص ويدعى صلاح الكلبى بعكس ذلك ، وعندما أراد الزيبق الوصول الى ذلك المنصب عرف أنه يجب عليه استخدام فنون المكر والحيلة والشطارة فبدأ يحرض الناس على صلاح الكلبى واستمر فى ألاعيبه حتى حقق هدفه ، ودائما يعبر الراوى عن فرحة الناس عندما يتعرض صلاح الكلبى للأذى ويقع فى شر أعماله وهنا يشعر الناس بالارتياح ويزاد تعاطفهم مع على الزيبق على اعتبار أنه يعبر عنهم جميعاً وعندما يتولى ذلك المنصب صار ينصف المظلوم ويأخذ لصاحب الحق حقه حتى أحبه الجميع وهابه الناس .

وتعرض السيرة أيضاً لطائفة مقهورة من العامة هى الشطار والعيارين والزعر والعياق الذين وصفهم المؤرخون المعاصرون باللصوص وقطاع الطرق وسفلة القوم وبأنهم قوم خارجون على القانون مثل أحمد الدنف الذى ذكرته السيرة الذى كان رئيس الشرطة ويعمل تحت يديه مجموعة كبيرة من الشطار والعياق فى حين يقول عنه المؤرخ ابن اياس " بأنه لص ومجرم خطير وأستاذ الشطار والفتيان وله حكايت فى فن السرقة يطول شرحها " وقد تم القبض عليه وإعدامه عام ٨٩١هـ / ١٤٨٦م[٩٦] ، ولكن الرؤية الشعبية تعاطفت معهم رأت انهم حركة ثورية شعبية ورأت أبطالها ثواراً مناضلين يستحقون الإعجاب والخلود ولذا تغنى الشعر الشعبى ببطولاتهم، فهولاء الشطار والعيارين هم نتاج سوء الأوضاع الاقتصادية القاسية والأوضاع السياسية الظالمة ، مما دفعت ببعض العامة إلى استخدام السلاح والعنف للحصول على حقوقهم ويظهر من خلال المصادر المعاصرة أن تلك الطبقة لم تظهر فى أيام الازدهار والاستقرار بل انتشرت فى أيام الضعف والانحلال وفساد السلطات الحاكمة وفى نفس الوقت فإن بطلنا فى هذه السيرة أصبح رئيساً للشطار والعياق .

ففى اواخر العصر المملوكى ظهرت فئة جديدة فى المجتمع المصرى وهى اللصوص التى اتخذت من السرقة أسلوباً فى الحياة مثل الحرافيش والعياق والمنسر

والزعر والشطار والعيارين فى الوقت الذى ضاعت فيه حقوق الناس عند الحكام وصار السلاطين المماليك والأمراء وكبار الموظفين هم اللصوص الرسميين فى الدولة ، فكانت تلك الفئة تسرق وتنهب لتعيد حقها المنهوب وتعبر عن سخطها وكراهيتها للسلطة القائمة ، ولذلك نال هؤلاء اللصوص الخارجين على القانون – من وجهة نظر الحاكم والمصادر التاريخية – تعاطف العامة لأنها نابعة منهم وتعبر عن أعماق الوجدان الشعبى ومعاناته ورأتهم العامة أبطال يدافعون عنهم فتغنى الشعر الشعبى بهم(٩٧) :

افدى اللـــص غداً بين الـــورى يا زين

هجام فى الليل شاطر ما يخـــاف الحين

ينشل ببطء حقيقة صـــدق ما هـــو مين

ويمسح الكحل سرعة من سواد العين(٩٨)

وقيل أيضاً عن الحرافيش وفقرهم وعدم قدرتهم على توفير نفقات ابنائهم ولكنهم لا يسرقون ويرضون بما يملكون ويقنعون أنفسهم وأطفالهم بحياة الفقر والرضا طمعاً فى الآخرة وهذا ما يؤكده أبنه أحد الحرافيش فتقول :

نحن الحرافيش لا نهوى على الدور ولا بدروز ولا نشهد شهادة زور

نقنع بالكسرة وخرقة فى سبد مهجور من ذا الفعال فعال ذنبه مغفور(٩٩)

ويستكمل الراوى وصفه لأحلام وأمانى الشعب الأعزل ورغبته فى حاكم عادل حقاً عندما يذكر وصية هارون الرشيد لأبنائه عند احتضاره فإنه يقدم لهم وصية سياسية حكيمة يقول فيها " ضعوا الأشياء فى محلها والمناصب فى أيدى أهلها ولاسيما الولاة وأرباب الوظائف الكبار ؛فينبغى أن يكون هؤلاء من أهل الفضل والكمال موصوفين بالاستقامة والأمانة ،وأن يكونوا مشهورون بالحلم وصدق الديانة ولا يميزون بين الحقير والشريف ولا يظاهرون القوى على الضعيف ،فيهابهم جميع المأمورين ويقتدى بهم باقى المستخدمين ، فإذا كانوا على هذه الحالة تستقيم أحوال

الرعايا ، فترعى الذئاب الغنم ، أما إذا كانوا على خلاف مع هذه الأوصاف.... فسوف تضطرب الأحوال ويقع الاختلال ويكون سبباً لضرر البلاد وعوض الإصلاح، وتقمع العباد ، فيضيع الحق والإنصاف ،ويكثر الجور". وهنا يمكن القول بأن الراوى أراد فى هذه الوصية أن يعبر عن عدم وجود العدل فى العصر الذى يعيش فيه ، ويؤكد على مواطن القوة والخلل فى الحكم ، كما يقدم لنا تصور وتخيل المجتمع الشعبى للحاكم والحكومة كما ينبغى أن تكون عليه فى وجدان العامة بأن " العدل أساس الحكم "

وبعد هذا العرض فقد رأينا أن الإنسان المصرى استطاع الاحتجاج والثورة على الأوضاع الغير مرضية فى الدولة واتخذ أساليب متنوعة ؛ فوجدناه أحياناً يعارض بعنف جماهيرى مسلح ، ولكن عندما يعجز عن حمل السلاح المادى وتوضع فى يده الاغلال والقيود يترك العنان لنفسه فيبدع بالكلمات والعبارات والقصائد الشعبية التى هى أقوى مؤثر سواء على المدى القصير أو البعيد ، كما تحمل فى طياتها السخرية الفكاهيه اللاذعة الصريحة أو التورية ، وهو ما نسميه الأدب الشعبى الذى كان نتاج آلام وأحلام وأمانى العامة ونبع من مشاعرهم وأدى رسالة هامة وهى تسجيل الأحداث التاريخية مع الإيضاح والتفسير فى إطار شعبى راقى تمثل فى الألقاب الساخرة وفى الأغانى الشعبية القصيرة وفى القصائد والسيرة الشعبية ، ولم يخش العامة أحد ؛ فأعلنوا ثورتهم واحتجاجهم على السلطان والأمير والوالى والقضاة ايضاً وعلى كل شخص آذاهم وعرض حياتهم للخطر وعبث بأحلامهم الطبيعية البسيطة ولم يحسن معاملاتهم أو الإحسان إليهم ، ولكننا لاحظنا أيضاً أن تلك الثورات كانت غير منظمة وبدون أهداف محددة وليس لها قائد ؛ فعندما يحدث أمر يعكر صفو حياتهم يهبون جميعاً فجأة بدون إعداد أو تنظيم فيتجهون مباشرة إلى صاحب الحل و العقد وبعد فترة يعودون إلى منازلهم إما بوعد بعودة الحقوق لأصحابها أو بحل المشكلة فى الحال أو بالضرب والحبس فتذهب صيحاتهم سُدى بلا جدوى ، والأهم من ذلك أن العامة لم تفكر فى أى وقتٍ ما لتغيير نظام الحكم القائم ، فيتولى السلطة حاكم مصرى وليس عبد مملوكى أو لتعديل القوانين بل كانت هباتهم لسبب ما وعندما ينتهى السبب

تعود الحياة كما كانت ، ربما يعود ذلك إلى عدم الوعى السياسى لدى المصريين فى ذلك العصر فكل ما فكروا فيه هو توفير لقمة العيش والأمن والعدل ولا يهم جنسية من يحكم .

كما عكست لنا سيرة على الزيبق المصرى – والتى اعتمدت على ثقافة المقاومة بالحيلة– فكر المجتمع المصرى آنذاك الذى أدرك أن ما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة وذلك من خلال الحيل والمكر والألاعيب التى قام بها اللصوص والشطار والعيارين وعلى رأسهم الزيبق زعيم الشطار ، فقد كان له رسالة واحدة وهى استرداد حقوق الفقراء والمساكين وإعادة تقسيم الثروة بنفس طريقة الولاة الظالمين ، وهذا ما جعل العامة ينظرون إليه نظرة إجلال وإعجاب ، فهو فعل ما عجز عنه الآخرون فأعاد إليهم العدالة المفقودة . ولذلك تناقلت سيرته من جيل لآخر ، فالعامة رأت فيه الفارس الذى حقق أحلام البؤساء بدون مقابل .

* * *

حواشى البحث

(١) ابن سودون اليشبغاوى ، نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق محمود سالم محمد، دار سعد الدين – دمشق، ط٢٠٠١ ، م . ص٥.

(٢) أحمد صادق الجمال ، الأدب العامي في مصر، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٧٢

(٣) قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ والفلكلور ، دار عين ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص ٢٤، ٤٤ ،١٧٤ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج١ ق١ ، ص ٣٥٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٦٦

(٥) المقريزى ، السلوك ، ج١ ق ٢ ، ص ٦٠٤ –٦٠٥،نفسه ، ج٢ ق١ ، ص ١١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ١٣٤ – ١٣٥، ابن دقماق ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥.

(٦) مزيد من التفاصيل ، أنظر ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، دار النهضة ، ١٩٧٦م ، أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢م ، السيد الباز العرينى ، الإقطاع الحربى ، النهضة ، ١٩٦٧م

(٧) Dopp , Le Caire , tome , p. ١٣٥ , Baumgarten , op .cit , p. ٤٤٢ ,Larrivaz , op .cit , p. ٦٥

(٨) Dopp , Le Caire , tome ٢٣ , p. ١٢٣ , Walff , op .cit , p. ١١٩

(٩) ابن الحاج ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٤٧ ؛ Walff , Ibid

(١٠) طافور ، المصدر السابق ، ص ٧٠

(١١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج١ ، ص ١٠١ –١٠٥ –١٠٩ –١١٠ –١١٤

(١٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة دار الشعب ، ص ١٩٤ .ويذكر المقريزى ، أن الجنود المماليك امتدت أيديهم الى العامة فكانوا يدخلون الحاوانيت ويذبحون من فيها حتى قيل أن أحد الجنود قتل ٢٧ رجلاً ، أنظر ، السلوك ج٣ق١ ،ص ١٧٣.

(١٣) السلوك ، ج٣ ق ١ ، ص ٤٥٧ .

(١٤) المقريزى ، السلوك ، ج٤ق٢ ، ص ٦٩٨ ، ٧١٧.

(١٥) نزهة النفوس ، ج٣ ،ص ٣٣٨ ، المقريزى ، السلوك ، ج٤ق٢ ، ص ٩٦٤ .

(١٦) جمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن تغرى بردى ، النجوم الزهرة ، ج ١٥ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ١٤٧–١٥١ ، الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، مكتبة الأزهر ، ب .ت ، ص ٢٦٠–٢٦٢.

(١٧) بدائع الزهور ، طبعة الشعب ،ص ٣٣٩ .

(١٨) شمس الدين محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، ج١ ، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسسة المصرة للنشر ، ١٩٦٢م ، ص ٢٤ .

(١٩) المقريزى ، السلوك ج٣ق١ ص ٣٨١

(٢٠) المقريزى ، السلوك ، ج٣ق١ ، ص ٦٥١ .

(٢١) المقريزى ، السلوك ، ج٣ق١، ص ٧٨٤ .

(٢٢) المقريزى ، السلوك ، ج٤ ق١ ، ص ٣٨٩،٤٢٩-٤٣٠ ،الحافظ بن حجر العسقلانى ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، ج٣ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص ١٤٤.

(٢٣) الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، ص ٨٧٦.

(٢٤) بدائع الزهور ، ص ٥٥٤

(٢٥) محمد رجب النجار ، العدد ١ م ١٤ ، ص ٢٤٥ .، محمود رزق سليم ، الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين ، دار الكتاب العربى ، ١٩٥٧م ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢٦) رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك مجلة عالم الفكر العدد ٣ م ١٣ ، ديسمبر ١٩٨٢م ، ص ٦٩، ٧٥.

(٢٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ، ص ٧١٦

(٢٨) اللقب هو اسم وُضع بعد الاسم الأول للتعريف أو للتشريف أو للتحقير والذم ، والكنى تعنى تكلم بما يستدل به عليه ولم يصرح وكنى الرجل بأبى فلان وأبا فلانة ، كُنية تسمى بها ، أنظر ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ ، ٢٠٠٤م ، ص ٨٣٣ ، ٨٠٢ .

(٢٩) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ، تحقيق عبد الوارث محمد على ، بيروت ، ج١ ، ١٩٩٧م، ص٣٨ .

(٣٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٤٧٥ .

(٣١) المقريزى ، السلوك ، ج٤ ، ص ١٣٨ ، ١٩٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٩ ج٢ ، ص ٣٣٥ ، العسقلانى ، انباء الغمر ، ج٢ تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٤٩٣ .

(٣٢) هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته وفراغه وينالون ما لا يناله أكابر المقدمين ويحضرون فى خدمة القصر والأسطبل ويركبون لركوب السلطان ليلاً ونهاراً ولا يتخلفون عن قرب أو بُعد ويتميزون عن غيرهم فى الخدمة وكان عدتهم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين ثم زادوا فى أيام الأشرف برسباى نحو ألف خاصكيا ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ومنهم من ليس له وظيفة ، انظر ، ابن شاهين الظاهرى "غرس الدين بن خليل ، ت٨٧٢هـ/١٤٦٨م" ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس ، باريس ، ١٨٩٤م ، ص ١١٦.

(٣٣) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج٣ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ٢٨٥ ، ابن تغرى ، المنهل الصافى ، ج٦ ، ص ١١٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ق٢ ،ص ٨٣١ .

(٣٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ٢٩٠ .

(٣٥) المقريزى ، السلوك ، ج٢ تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ص ٤٢٨، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، دار الكتب ، ١٩٣٩م ، ص ٢٣٠؛ ويذكر أنه بنى مكاناً فوق قنطرة المجنونة للشيخ شهاب الدين العابر ولفقرائه وعقد عقدها قبواً وفى ذلك قال علم الدين الصاحب : ولقد عَجِبتُ من الطبرس وصحبه .. وعقولهم بعقوده مفتونه عقدوه عقداً لا يصح لأنهم ... عقدوا لمجنون على مجنونه .

(٣٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ، ص ٣٨٨ – ٣٩٠ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٩٠.

(٣٨) ابن إياس ، طبعة الشعب ، ص ٣٩٠-٣٩٢ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٠٩.

(٣٩) ابن تغرى ، النجوم ، ج ١٣ ،تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ص ٢٨٩-٢٩٠ ، أما ابن الصيرفى فيذكره باسم علاء الدين أقبغا الظاهرى والذى مات مقتولاً ، انظر ، نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٣٣٢، ٣٦٥ ، ٤١١، ٤٣٤ .

(٤٠) المقريزى ، السلوك ، ج٢ق١ ،ص ١٤١ ،ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٢٢٨ ، ابن ابى الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك ، باريس ١٩١٩م ، ج٣ ، ص ٢٤٤ ، صلاح الين خليل بن أيبك الصفدى ، أعيان العصر ، ج٥ تحقيق على أبو زيد وآخرون ، بيروت، ١٩٩٨م ، ص ٤٤٨ ،

(٤١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١١م .

(٤٢) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٧١ ، ٣٩١ ، المقريزى ، السلوك ، ج٢ق٢ ، ص ٤٢٠ ، ج٢ ق٣ ،ص ٦٤٤ ، ٨٢٣ ، ٨٤٩

(٤٣) اليوسفى : نفسه ص ٣٩٢ .

(٤٤) المقريزى ، السلوك ج٣ق١ ، ص ١٣٥-١٣٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣٤-٣٦ ، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، تحقيق عبد الوارث محمد على ، بيروت ، ج٤ ، ص ٢٧٠-٢٧١ ،

(٤٥) ابن اياس ، طبعة الشعب ، ص ١٨٨.

(٤٦) المقريزى ، السلوك ج٣ق١ ، ص ١٣٥-١٣٨ ، ابن إياس ، طبعة الشعب ، ص ١٨٧ .

(٤٧) بدر الدين العينى ، السلطان برقوق بدر الدين العينى، السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان، تحقيق إيمان عمر شكرى ،مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٢م ، ص ٤٤ ، الجزيرة الوسطى : عرفت بذلك لأنها تقع فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة وعرفت أيضاً بجزيرة أروى ، المقريزى ، الخطط ، ج٣ ، ص ٣٠٢.

(٤٨) المقريزى ، السلوك ، ج٣ق١ ، ص ١٣٨ ، ابن اياس ، ج١ ق٢ ، ص ٤٧ -٤٨ .

(٤٩) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج١ ص ٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٧-٢٨ .

(٥٠) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٤ تحقيق محمد محمد أمين ، ١٩٨٦م ، ص ٥٤ - ٥٦ ، النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ٢٣٠-٢٣١ ، العسقلانى ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، ج٤ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص ١٩٢-١٩٣.

(٥١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، وزارة الثقافة ، ١٩٤٣م ، ص ١٣ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٨ .

(٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٩م ، ص ١٧٣- ١٧٧، بدر الدين العينى، السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان، تحقيق إيمان عمر شكرى ،مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٢م ، ص ٣٥-٣٦ .

(٥٣) بيبرس المنصورى ، التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، تحقيق صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧م ، ص ١٨٧-١٩٨، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ١١٢، محب الدين أبو الوليد محمد بن الشحنة ، روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر ، تحقيق سيد محمد مهنى ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٩٧م ، ص ٢٥٧ .

(٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٢٤٤ ، المنهل الصافى ، ج٣ ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة العامة ١٩٨٥ م ، ص ٤٦٧ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٤٢٤-٤٢٥ ، السيف المهند ، ص ٢١٣ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٠٠ ، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ، تحقيق محمد زينهم عزب ، دار المعارف ، ١٩٩٩م ، ص ٧٠-٧١ ، الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكره النبيه فى أخبار المنصور وبنيه ، ج٢ تحقيق محمد محمد أمين ،القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ١٧ .

(٥٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ج١ق١ ، ص ٤٢٦-٤٣١ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢١-١٢٢

(٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ج١ق١، ص ٤٢٦-٤٣١ ، ابى الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ،ص ٧٠-٧١ ، ابن حبيب ، تذكره النبيه ، ج٢ ، ص ١٧، القاضى محمد بن علي الشوكانى ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ،ج١ تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م ، ج١ ، ص ١١٤ ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقى بن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ،بيروت ١٩٩٨م ، ص ٥٦ .

(٥٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص ٢٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص٤٩٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ٢٦، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ١١٦، بدر الدين العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق محمد مصطفى وفهيم شلتوت ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ٢١٢-٢١٣.

(٥٨) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص ٤٨ .

(٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٤٨ ، ابن اياس ، ج١ ق١ ، ص ٤٩٣-٤٩٤ .

(٦٠) عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة الأزهر ، ج١ ، ١٩٢٨ م ، ص ٢٤ ، نظير سعداوى ، صور ومظالم من عصر المماليك ، النهضة ، ١٩٦٦م ، ص ١٢٣ .

(٦١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١١ ، المقريزى ، السلوك ج٢ ق٣ ، ص ٣٠٦ .

(٦٢) ابن إياس ،ن بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٤٩٨ .

(٦٣) مؤرخ مجهول ، تاريخ الأشرف قايتباى ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٨٣ ، ابن الشحنة ن روض المناظر ، ص ٢٩٠.

(٦٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص ١٦٣ ، ابن إياس ،بدائع الزهور ، ج١ ق٢، ص ٢٢٠.

(٦٥) العسقلانى ، إنباء الغمر بأباء العمر ، ج١ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٣٦٨ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، ج١ ، ص ١١١ ، مؤرخ مجهول ، تاريخ الأشرف قايتباى ، ص ٨٤- ٨٦، ابن الشحنة روض المناظر ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

(٦٦) المقريزى ، السلوك ج٣ق١ ، ص ٦٢٧، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، دار الكتب المصرية ، ج ١١ ، ص ٣١٩-٣٢٣، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، ج٩ ق١ ، ص ١٠١.

(٦٧) ابن اياس ، طبعة الشعب ، ص ٢٤٠-٢٥١ .

(٦٨) النجوم ، ج١١ ، ص ٢١٠-٢١١ .

(٦٩) بدر الدين العينى ، السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان ، ص ٥١ .

(٧٠) الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ١٩٧-١٩٨ ، العينى ، السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان ، ص ٧٥-٧٦

(٧١) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، ج٢ ص ٢٩١-٢٩٥

(٧٢) النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ص ٧٩ ، ، ابن اياس ، طبعة الشعب ، ص ٣٦٣.

(٧٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج٢ ، ص ٢٩٩ .

(٧٤) النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٨ ، ١٣٥-١٣٦ .

(٧٥) مؤرخ مجهول ، تاريخ الأشرف قايتباى ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٧٦) ابن اياس ، طبعة الشعب ، ص ٣٢٨ .

(٧٧) ابن اياس ، ص ٥٦٤-٥٦٥ .

(٧٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ، ص ٦٩٢-٦٩٣ .

(٧٩) ابن اياس ، ص ٧٢٠- ٩٩٥ .

(٨٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ، ص ٧١٦ .

(٨١) ابن إياس ، طبعة الشعب ، ص ٧٤٠-٧٤١ .

(٨٢) محمود رزق سليم ، الأب العربى وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ، دار الكتاب العربى ، ١٩٥٧ ، ص ٧٥ ،٨٢ .

(٨٣) ياسين الأيوبى ، آفاق الشعر العربى فى العصر المملوكى ، ص ٢٧٧ ، محمود رزق سليم ، عصر المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، ج٧ ، ص ١٣ ، نيفين عمرو ، السخرية فى العصر المملوكى الأول ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الخليل ، ٢٠٠٩م ،ص ٤-٥ -٨٨ .

(٨٤) أحمد فوزى الهيب ، الحركة الشعرية زمن المماليك ، مؤسسة بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ١٦٤

(٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ص ٣٠٤-٣٠٥

(٨٦) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٣ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ .

(٨٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص ٤٧-٤٨ .

(٨٨) ابن اياس ، طبعة الشعب ، ص ٣٨٢ .

(٨٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ص ٣٠٤-٣٠٥

(٩٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ، ص ٧٤٠ .

(٩١) ابن اياس ، طبعة الشعب ، ص ٧٥٣-٧٥٤ ، نجم الدين محمد بن محمد الغزى ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، ج١ ، تحقيق خليل منصور ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ٢٢٠ ، ٣١٩.

(٩٢) قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ والفلكلور ، ص ٤٨-٤٩ ، ٩١-٩٣ .

(٩٣) فؤاد حسنين على ، قصصنا الشعبى ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧م ، ص ٥٠ .

(٩٤) اعتمدت على نسخة منقحة ومكتوبة باللغة العربية الفصحى بدلاً من اللغة العامية ، محمد رجب النجار ، سيرة على الزيبق المصرى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٣ أجزاء ، ٢٠٠٥م . أما النسخة العامية فقد كتبها شخص يدعى أحمد بن عبد الله المصرى وطبعت عام ١٨٨٠م بدمشق ، ونسخة أخرى عامية للكاتب خيرى عبد الجواد ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٤م .

*على الزيبق : هو شخصية عربية ذُكرت فى المصادر التاريخية لأول مرة عام ٤٤٤هـ عندما حدثت فتنة بين السنة والشيعة فى بغداد " وانتشر العيارون وتسلطوا واستولوا على الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه أرباب العمل وكان مقدمهم الطقطقى والزيبق ، ،أعاد الشيعة الأذان بحى على خير العمل وكتبوا على مساجدهم محمد وعلى خير البشر وجرى القتال بينهم وعظم الشر" ، أنظر ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، ج٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٣١٠ .

(٩٥) مثل السنجق و السنجقدار ، وجاق الإنكشارية ، مقدم الدرك ، وكلها وظائف عسكرية عرفت فى العصر العثمانى ، بالإضافة إلى أسماء بعض الشخصيات من العصر المملوكى مثل كبير اللصوص أحمد الدنف

(٩٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة الشعب ، ص ٥٣٧.

(٩٧) محمد رجب النجار ، العدد ١ م١٤ ، ص ٢٣٩ .

(٩٨) محمد بن صصرى ، الدرة المضيئة فى الدولة الظاهرية ،تحقيق ونشر وليم برينز ، اكسفورد ، ١٩٦٣م، ص ٩٧.

(٩٩) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ٢٠.

* * *